

# علي بن ابراهيم بن بخنيشوع الكفرطابي

وكتابة تشرح العين وأشباهها ومداداة أعلاها.

د. محمد رواس قلعهجي

لما كان حفظ صحة الانسان وابلائها من سقمها من المقاصد الأساسية  
المقدمة التي يسعى اليها الانسان ، فاننا لا نستغرب ظهور علم الطب في  
وقت مبكر جداً من تاريخ الانسانية . بل اننا لا نتصور وجود  
الانسان بغير طب ، بصرف النظر عما اذا كان هذا الطب مبنياً على  
أسس خرافية أو علمية تجريبية .

لقد ظهر بين قدماء العرب أطباء درسوا الطب دراسة علمية ، ولعل لقمان الحكيم  
كان من أقدم أطبائهم . وظهر بعده الحارث بن كلدة ، وولده النضر ، اللذان عاصرا  
الرسول (ﷺ) ، وكذلك الطبيب ابن أبي رمثة التميمي الذي اشتغل بالجراحة . ويقال ان  
الحارث بن كلدة قد درس الطب في بيمارستان جنديسابور ، من بلاد فارس ، ثم مارسه  
ونبغ فيه ، فاشتهر أمره وكثر ماله .

أما في العصر الأموي فقد استعان الخلفاء والأمراء بالأطباء السوريين ، فمثلاً اتخذ  
معاوية بن أبي سفيان ابن أثال النصراني طبيباً له ، كما استعان مروان بن الحكم وأبناءؤه  
ببعض أفراد عائلة أبي الحكم الدمشقي ، وكان تياذوق طبيب الحجاج بن يوسف الثقفي ...

ولما بدأت حركة الترجمة ، بتشجيع من الأمير خالد بن يزيد ، كانت كتب الطب  
والكيمياء اليونانية أول ما نقل الى اللغة العربية ، وان كان لم يصلنا سوى كناش أهرن  
الراهب الذي ترجمه الطبيب البصري ماسرجويه في زمن مروان بن الحكم ، وأمر  
بنسخه ونشره الخليفة عمر بن عبد العزيز .

وحينما آلت الخلافة الى بني العباس ، وولتي الخلافة أبو جعفر المنصور ، استقدم  
رئيس بيمارستان جنديسابور (جرجس بن بختيشوع) (ت - ١٥٥ هـ) ، ليكون طبيباً

خاصاً له . وقد قام الطبيب المذكور بتأليف كُنْشاش في الطب ترجم الى اللغة العربية . ثم ظهر تراجمة عديدون ، بعضهم من الهنود وبعضهم من النصارى ، نذكر منهم أبا يحيى بن البطريق (ت - ١٩١ هـ) ، وقد قام بترجمة بعض كتب جالينوس وأبقراط .

ولكن الترجمة الصحيحة والتأليف الناضج لكتب الطب لم يبدء الا بعد أن أسس الخليفة المأمون أول مجمع علمي عربي (عام ٢١٧ هـ) ، وأطلق عليه اسم « بيت الحكمة » . وانتخب له أشهر العلماء والتراجمة ، وجلب اليه أمهات الكتب العلمية من كل اختصاص . والجدير بالذكر أن الخليفة المأمون استخدم النفوذ السياسي للدولة للحصول على المخطوطات المحفوظة في مكتبات الدول الأخرى . فاستطاع الحصول على مجموعة ضخمة من الكتب من أنقرة وعمورية ، ومجموعة أخرى من قبرص وغيرها . . . .

لقد أسند المأمون رئاسة دار الحكمة الى « يوحنا بن ماسويه » (ت - ٢٤٣ هـ) ، ثم أسندت من بعده الى تلميذه « حنين بن اسحاق » (ت - ٢٦٤ هـ) ، وهما طيبيان أتقنا اللغة اليونانية ويعود اليهما فضل تأسيس مدرسة للترجمة قامت بنقل كثير من المؤلفات الطبية الى اللغة العربية .

وكان يقوم الى جانب « دار الحكمة » مؤسسة موسى بن شاكر وأولاده ، والتي كانت تنفق على الترجمة كل شهر خمسمائة دينار، كما كانت ترسل على نفقتها الرجال ليجمعوا لها الكتب من بلاد الروم ، وتسعى لايجاد من يحسن الترجمة والنسخ .

ومما يلفت النظر ظهور كتب تخصصية ألّفت في طب العيون خلال هذا العصر المبكر . وقد كان للدكتور « يوليوس هيرشبرغ » ، أستاذ طب العيون في جامعة برلين ، فضل اكتشاف بعض هذه الكتب في زوايا المكتبات الأوروبية ، وأن يقدم لنا أسماء اثنين وثلاثين كتاباً في طب العيون ، ألّفها مشاهير الأطباء من عرب وفرنس وسريان .

ولا يعني ذلك أن هذه الكتب ، التي ذكرها هيرشبرغ ، هي كل ما ألّف أو ترجم من كتب طب العيون، اذ قدم لنا الدكتور « ماكس مايرهوف » أسماء كتب عديدة أخرى عثر عليها في المكتبات الشرقية غالباً .

لقد بلغ التأليف في طب العيون أوجه على أيدي أربعة من المؤلفين وهم :

١ - حنين بن اسحاق العبادي (ت - ٢٦٤ هـ) ، ألّف كتاب « العشر مقالات في العين » ، وهو أول كتاب جيد ألّف باللغة العربية في طب العيون ، وقد تم تصنيفه بحيث جعلت أسباب الأمراض في مقالة ، وأعراض الأمراض في مقالة أخرى ، وعلاج الأمراض في مقالة غيرها . وبما أن هذا الترتيب مرهق للقارئ لذلك لم يتبع هذا الترتيب المؤلفون الذين جاؤوا بعد حنين ابن اسحاق . وقد طبع كتاب العشر مقالات بتحقيق الدكتور ماكس مايرهوف بالقاهرة .

٢ - علي بن عيسى الكحال (ت - ٤٠٠ هـ) : له كتاب « تذكرة الكحالين » وهو أول كتاب عربي في طب العيون ، تراعى فيه الأصول الأكاديمية في التأليف . وقد طبع في الهند بتحقيق الدكتور غوث محيي الدين القادري الشرفي .

٣ - عمار بن علي الموصلي (ت - ١٠٠٠) له كتاب « المنتخب في علاج أمراض العين » وهو محفوظ في مكتبة تيمور باشا ، في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

٤ - صلاح الدين بن يوسف الكحال الحموي (ت - ٦٩٦ هـ) له كتاب « نور العيون وجامع الفنون » وهو يعتبر بحق أنضج وأشمل كتاب وضع في طب العيون باللغة العربية ، لأنه جمع كل ما جاء في كتب أطباء العيون من قبله - وقد طبع هذا الكتاب في الرياض بتحقيق الدكتور محمد ظافر وفائي والدكتور محمد رواس قلعهجي .

وكتابتنا هذا ، الذي نقدمه الى الباحثين ، عنوانه « تشريح العين وأشكالها ومداواة أعلالها » هو من تأليف علي بن ابراهيم بن بختيشوع الكفرطابي ، وهو من جملة ما ألف في طب العيون خلال القرن الخامس الهجري .

#### أ - سيرة المؤلف :

مؤلف هذا الكتاب طبيب مغمور ، لم يتحدث عنه المؤرخون العرب ، ولم تتوافر لنا من المعلومات عنه غير ما استخلصناه من كتابه ، وما كتبه أيضاً الدكتور ماكس مايرهوف عنه في مقدمة « كتاب العشر مقالات في العين » الذي قام بتحقيقه .

انه علي بن ابراهيم بن بختيشوع الكفرطابي . ويبدو أنه نشأ في بلدة كفرطاب ، ثم رحل الى مصر ، حسبما يقول الدكتور مايرهوف ، حيث مارس مهنة طب العيون ، وفيها جرب الكحل الذي ركبه علي بن عيسى الكحال ، والنافع لأكثر أمراض العين .

ومن المحتمل أن يكون علي بن ابراهيم قد رحل الى اليمن ، حيث اجتمع بالقاضي « أسعد » ، أو أنه التقى به في مكان آخر - ذلك لأنه ذكر في كتابه أنه أخذ منه وصفة كحل جلاء ، يقوي البصر ، ويمنع من نزول الماء في العين ، ويجلو البياض لمن أدمن الاكتهال به ، وكان القاضي المذكور قد حصل على هذه الوصفة من طبيب هندي جاء الى عدن . وقد جرب الطبيب علي بن ابراهيم هذا الكحل فحمد منفعته .

يقول الدكتور مايرهوف في مقدمة كتاب (العشر مقالات في العين) حين كلامه عن علي ابن ابراهيم : « ولا بد أنه قضى شطراً من حياته في مصر ، اذ يحدثنا عن مرض نجح في معالجته بالقاهرة عام (٤٦٠ هـ) » والحقيقة أن هذه التجربة قد ذكرها المؤلف في آخر كتابه حيث قال :

« وقال الكندي : ان أبا نصر كان لا يبصر الكواكب ولا القمر ، فاستعط بمثل عدسة [من] كندس مع دهن بنفسج ، فرأى الكواكب بعض الرؤية ، فاستعط به ثانية وثالثة فبرء برء تاماً ، وكان قد تقدم تنقية الجسد ، فنقّى الكندس الرأس » ثم قال :

« ووجدت هذه الرواية في [كتاب] « الحاوي » الا أنها طباشير ، وعجبت أنا كيف مرّ هذا على من نسخ الحاوي ، لاني رأيته في خمس نسخ ، وجربته أنا ، فكان الكندس [هو] الذي ينقي الدماغ ، وليس للطباشير الا التبريد والتجفيف ، وما له تحليل ولا تقطيع ، والغرض ما يلطف ويقطع . ولما فكرت فيه وجدت الكندس يتصحف طباشير . وصح لي

ذلك بالتجربة في سنة ستين وأربعمائة ، في امرأة كبيرة السن وفي رجل برئاً ، بعد تنقية الجسد بسعوط الكندس ، من ضعف البصر ، الذي بلغ بهما ألا يبصرا ما بعد ، ولا يتحققا ما قرب ، ومن العشا ، بأذن الله تعالى » .

مما سبق يتبين لنا أن هذه الحادثة جرت سنة ٤٦٠ هـ ، كما قال مايرهوف ، ولكننا لا نعلم أنها كانت في مصر أم في غيرها من البلاد ، فتحدد كونها في مصر قول لا برهان عليه حتى الآن . ومن هذا النص الذي ذكرناه نعلم أن علي بن ابراهيم كان حياً عام (٤٦٠ هـ - ١٠٦٦ م) وأن وفاته كانت بعد هذا التاريخ .

لقد ذكر الدكتور مايرهوف أيضاً أن علي بن ابراهيم لم يكن أخصائياً في طب العيون ، بل كان متطبباً عاماً ، تعاطى صناعته في كفرطاب . وأغلب الظن أن مايرهوف قد استنبط حكمه هذا لأنه وجد مؤلفنا يتحدث في أول كتابه عن تركيب جسم الانسان ، وعظامه وعضلاته وأعصابه . كما وجدته في آخر كتابه يتكلم عن أدوية لا علاقة لها بالعين ، فقد ذكر مثلاً دواءً للأسنان وأمراض اللثة ، كما ذكر دواء يمنع تحلب المواد من الدماغ إلى الصدر ، وآخر لمداداة البواسير . . .

مما لا شك فيه أن كتاب تشريح العين وأشكالها ومداداة أعضائها هو من تأليف طبيب أخصائي كحّال ، أراد أن يلخص فيه بعض جوانب الطب العام ، لأنه لا بد لمن يريد أن يكون متخصصاً في طب العيون أن يتقن الطب العام أولاً . ذلك لأن بعض أمراض العين سببه من الجسم ، وبعض أمراض العين يسبب مرضاً في الجسم ، ولهذا نجد أطباء العيون يعالجون مرض الصداع ومرض الشقيقة وغيرها من أمراض الرأس . والطبيب علي بن ابراهيم قد مهر في الطب العام ، بدليل ما قدمه من معلومات في مقدمة كتابه عن التشريح ووظائف الأعضاء . ولا أدل عندي على تخصصه في طب العيون ومهارته فيه مما أورده في كتابه من الأدوية المستعملة في جميع أمراض العين ، وما جرّبه على مرضاه وثبت له فاعليته وجدواه . بالإضافة إلى العمليات الجراحية التي عملها في العين بنفسه ، والعمليات التي قام بوصفها .

#### ب - ابراهيم بن بختيشوع والد المؤلف :

كان طبيباً للعيون أيضاً ، ومن المحتمل أن يكون له مؤلفات في طب العيون لم تصلنا ، فقد ذكر ابنه علي بن ابراهيم في الصفحة (٧٩) من كتابه المخطوط ، كحلاً حصل عليه من كتب والده ، فقال : « كحل وجدته بخط والدي في كتبه ، يبرئ من اليرقان الشديد ، ... والقروح الوضيرة ، ويسكن الألم ، وينقي الغذاء ، وهو منج : أنزروت أبيض ثلاثون درهماً ، سكر طبرزد عشرة دراهم ، قاطر وورد أحمر من كل واحد خمسة دراهم ، أفيون درهمين تسحق مفردة ، وتنخل من خرقة صفيقة ، وتخلط ويذر منها بين الأجناف وعلى القروح ، بعد أن ينقى البدن . فانه حسن الفعل ، وقد جرّبه فحمدت تأثيره بتوفيق الله » وقول المؤلف « كحل » وجدته بخط والدي في كتبه . . » يحتمل أنه أراد بذلك كتبه التي ألّفها ، كما يحتمل أنه أراد بذلك الكتب التي كان يقتنيها من تأليف غيره . وفي كلتا الحالتين فإن هذا يدل على أن والد علي بن ابراهيم كان من المهتمين بطب العيون .

ولكن هنالك ما يدل على أن الوالد كان أكثر من مهتم بطب العيون ، بل كان طبيب عيون لأن ابنه علياً نقل رأيه في بعض الأدوية التي تبرىء من الماء قبل تمامه ، ولم ينقصه .  
فهو يقول : « قال والدي : يبرىء منه ، أي من الماء ، قبل تمامه : مرارة الرقّة البحرية (السلحفاة) ، أو مرارة الحبارى ، مع عصارة الفراسيون ، وعسل فائق ، وكذا مرارة الضبع .  
أو يكتحل بالمرّ والفلفل ، ويعمل أشيافاً » - وأغلب الظن أن علي بن إبراهيم أخذ طب العيون عن أبيه .

#### ج - آل بختيشوع :

أسرة سريانية نسطورية ، اشتهرت بعلم الطب ، فتوارثه فيها الأبناء عن الآباء . وقد نبغ بعض أفراد هذه الأسرة حتى كانوا الأطباء الخاصين للخلفاء العباسيين خلال فترة امتدت حوالي ثلاثة قرون .

وأصل هذه الأسرة يعود إلى الطبيب جرجس بن بختيشوع (ت - ١٥٥ هـ) ، الذي كان يعمل رئيساً لبيمارستان جنديسابور ، فذاع صيته هناك ، فاستدعاه الخليفة المنصور لمرض ألمّ به ، فلما شفي على يده جعله طبيبه الخاص ، ثم خلفه ابنه بختيشوع (ت - ١٨٤ هـ) الذي خدم الخليفة هارون الرشيد ، وجاء بعده ولده :

- جبرائيل بن بختيشوع (ت - ٢١٣ هـ) وكان طبيباً للرشيد ، ومقدماً عنده ، حتى كان جليسه وخليله .

- ويوحنا بن بختيشوع (ت - ٢٩٠ هـ) الذي كان طبيباً للخليفة الموفق ، وله كثير من الكتب المترجمة .

ثم خلف هؤلاء أبناءهم : بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس (ت - ٢٥٦ هـ) الذي كان طبيباً للخليفة العباسي المتوكل ، وصنف له كتاباً في الحجامة (١) .

وبختيشوع بن يوحنا بن بختيشوع (ت - ٣٢٩ هـ) الذي كان طبيباً للمقتدر بالله ثم للراضي بالله (٢) .

وجبرائيل بن عبيدالله بن بختيشوع (ت - ٣٩٦ هـ) ، وكان طبيباً وفيلسوفاً ، رحل إلى شيراز واتصل بعضّد الدولة ثم بالصاحب بن عباد . واستدعاه عزيز مصر ليكون في خدمته ، ولكنه اعتذر ، وعاد إلى بغداد وتوفي فيها (٣) .

أما مؤلفنا « علي بن إبراهيم بن بختيشوع » (المتوفى بعد ٤٦٠ هـ) فهو من سلالة هذه الأسرة وإن كنا لم نجد له ولا لأبيه ذكراً ، ولا نستغرب ذلك ، لأن الناس كانوا لا يؤرخون إلا لمن لمع نجمهم ، ومؤلفنا « علي » لم يبلغ به النبوغ هذا المبلغ ، ولم يحالفه الحظ في خدمة السلطان ، لذلك عاش حياته على الهامش في تلك البلدة القاحلة « كفرطاب » .

ولعل سفره إلى مصر وإلى اليمن أنصح ، كان بحثاً عن ذي سلطان يضمه إليه ، وعدّه في ذلك ما يحمله من علم متواضع في الطب ، وشهرة أسرته في هذا الميدان .

قلنا ان أسرة بختيشوع كانت سريانية ، نسطورية ، ولكن اسم مؤلفنا « علي بن ابراهيم ابن بختيشوع » هو اسم اسلامي ، وربما يدل ذلك على تحول أحد فروع هذه الأسرة عن النسطورية الى الاسلام ، ولعل هذا هو الذي جعل والد مؤلفنا يعتزل أسرته ، ذات الجاه العريض ، ويعيش في تلك البلدة المتواضعة « كفر طاب » .

#### د - بلدة كفر طاب :

يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان « كفر طاب بلدة بين مدينة المعرة ومدينة حلب ، في بريّة مُعطشة ليس لهم شراب الا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج (٤) » . ومما قيل فيها قول أبي عبدالله محمد بن سنان الخفاجي :

بالله يا حادي المطايا      بين حنّاك وأرضايا  
عرج على أرض كفر طاب      وحيّها أحسن التحايا  
واهد لها الماء فهي ممن      يفرح بالماء في الهدايا

وقال فيها عبدالرحمن بن محسن بن عبد الباقي بن أبي حصن المعري :

أقسمت بالرب وبالبیت الحرام ومن      أهلّ مُعتمراً من حوله وسعى  
إن الألى بنواحي الغوطتين وإن      شطّ المزار بهم يوماً وإن شسعا  
أشهى الى ناظري من كلّ ما نظرت      عيني وفي مسمعي من كل ما سمعا  
ولا كفر طاب عندي بالحمى عوضاً      نعم سقى الله سكان الحمى ورعا

ورغم أن كفر طاب كانت بلدة صغيرة في ذلك العصر ، الا أنها كانت بلدة معطاء ، أخرجت لنا من الأدباء والشعراء والمحدثين والأطباء من سجّل التاريخ اسمهم ، وحفظ لهم ذكروهم ، فأخرجت من المحدثين أحمد بن علي بن الحسن بن أبي الفضل الكفرطابي المتوفى سنة ٤٥١ هـ (٥) .

ومن اللغويين أبا الخير سلامة بن عيّاض بن أحمد (المتوفى بحلب سنة ٥٣٤ هـ) وله كتاب التذكرة في النحو في عشر مجلدات ، وكتاب ما تلحن فيه العامة ، وكتاب فضل العربية (٦) .

ومن الأدباء أبا عبدالله محمد بن يوسف بن عمر (المتوفى سنة ٥٥٣ هـ) له كتاب غريب القرآن ، ونقد الشعر ، وبحر النحو ، وقد نقض في هذا الكتاب مسائل كثيرة من مسائل النحويين (٧) .

ومن الأطباء علي بن ابراهيم بن بختيشوع ، وهو صاحب كتاب « تشريح العين وأشكالها ومداواة أعلالها » وهو الكتاب الذي سنتحدث عنه فيما يلي :

#### كتاب تشريح العين وأشكالها ومداواة أعلالها

## ١ - النسخ الموجودة من الكتاب :

ان مؤلفنا علي بن ابراهيم بن بختيشوع لم يترك - فيما نعلم - غير كتابه المذكور . وقد ذكره الزركلي في كتاب الأعلام ، عند كلامه على « علي بن ابراهيم بن بختيشوع » وذكر خاتمته كما هو مثبت في مخطوطنا .

وهذا يعني أن الزركلي قد اطلع على كامل الكتاب وقرأه ونسخ نهايته ، وإن المعلومات التي ذكرها عن المؤلف مأخوذة كلها من الكتاب نفسه .

لقد ذكر « ماكس مايرهوف » هذا الكتاب في مقدمته لكتاب العشر مقالات في العين لحنين بن اسحق باسم « تركيب العين وأشكالها واداءة عملها » وقال : هذا الكتاب مجهول والم يذكره أحد سواي .

ويوجد من هذا الكتاب اليوم - فيما نعلم - نسختان خطيتان ، الأولى في ليننجراد ، والثانية في القاهرة في مكتبة تيمور باشا ، وهي نسخة نقلت عن مخطوطة ليننجراد . ويقول ناسخها « قد وقع الفراغ من نسخ هذا الكتاب في صباح يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ١٣٤٨ الموافق ١٢ فبراير سنة ١٩٣٠ م نقلاً عن نسخة استحضرتها جناب الدكتور ماكس مايرهوف ، الطبيب الأخصائي في العيون ، من مدينة ليننجراد عاصمة الروسيا ، بالتصوير الشمسي ، ونسخ ذلك الراجي عفو مولاه محمود صدقي النسخا بدار الكتب المصرية » .

أما نسخة ليننجراد فهي نسخة قديمة ، وقرينة جداً من عهد المؤلف . وناسخها طبيب اسمه : عبدالرحمن بن ابراهيم بن بسام بن عمّار الأنصاري المقدسي . ويقول ناسخها رحمه الله : « ووافق الفراغ من نسخها سنة واحد وخمسين وخمسمائة للهجرة النبوية » . وإذا علمنا أن المؤلف كان حياً عام ٤٦٠ هـ - كما قدمنا - فإن هذه النسخة قد نسخت بعد مرور أقل من مئة عام على وفاته .

## ٢ - السبب الباعث على تأليف الكتاب :

لا بد لكل مؤلف من سبب يجعله يفكر ببحث أمر معين قبل الكتابة فيه ، وقد يكون هذا السبب اضافة معلومات جديدة ، أو تعديل معلومات قديمة ، أو عرض موضوع عرضاً جديداً يختلف عن عرض السابقين له . . .

وإذا كان « علي بن ابراهيم » يرى أن علم الطب قد اكتمل على يد « جالينوس » ، حتى كانت غاية من أتى بعده من الأطباء فهم كلامه ، وسلوك طرق قوانينه ، فانتا لا نطمح أن يكون سبب تأليفه كتابه هذا هو اضافة الجديد ، ولا تعديل القديم . ونستغرب أن يكون الباعث على تأليف هذا الكتاب هو صياغة المعلومات بعبارات مسجوعة ، في عصر ساد فيه السجع ، واعتبر من أرقى أساليب الكتابة .

ويقول المؤلف في مقدمة كتابه :

« قال علي بن ابراهيم : رأيت كل مؤلف كتاب ، ومصنف آداب ، له سبب حثه عليه ،

وغرض يقصد به اليه، والعلوم أوائل وأصول، والحكم حقائق ومحصول، سيما علم الطب وصناعته، لشرف موضوعه وجلالته، إذ كان علماً قياسياً، وأصلاً عقلياً، وتجارب وحياً، وفصولاً، وجملًا. وقد أجمع كافة الناس، على اختلاف الأجناس، أن جالينوس تمم هذه الصناعة وأكملها، وأبان غامضها ومشكلها، وقرر لها أصولاً، وجعل لها فصولاً، تقرأ على ترتيب ونظام، وقرَّبها إلى الأفهام. فجميع المصنفين من بعده مقصرون، وفي أثره مجتهدون، وأفضلهم من بيّن في تصنيفه فهم كلامه، وسلك طرق قوانينه وأقسامه.

فلما رأيت ذلك عدلت إلى تسجيع ألفاظه وتطبيقاتها، ونقلها على معانيها وتحقيقها، وما قد صح عند أتباعه، وتقرر في كتب أشياعه، ورأيت في ذلك معنى لطيفاً، وفناً شريفاً، وهو تسهيل حفظه على الطالبين، وتقريب فهمه من قلوب المتعلمين، وأتميز به عن تصنيفهم، وأبين به من تأليفهم.

ومهما قلنا في أهمية هذا الباعث، فانه كان في نظر المؤلف مشروعاً. ويمكننا أن نلتبس للمؤلف في ذلك بعض العذر، لأنه رأى معاصريه ينظمون العلوم أراجيز تسهيلاً لحفظها فقد نظم اليشكري (ت - ٣٧٠ هـ) أرجوزته في النحو والصرف (٨)، ونظم ابن مالك (ت - ٦٧٢ هـ) ألفيته المشهورة، ونظم علي بن محمد السخاوي (ت - ٦٤٣ هـ) منظومته في المواريث (٩)، ونظم الحصني أرجوزته في العين (١٠). وكثير ممن هم قبل هؤلاء وبعد هؤلاء نظموا العلوم في قصائد تسهيلاً لحفظها، والانسنان ابن عصره، ولما رأى مؤلفنا أن ثروته اللغوية، وخبرته في نظم الشعر لا تساعدانه على ذلك، فإنه عدل عن نظم كتابه هذا شعراً واكتفى بالسجع.

ان الذي يقرأ الكتاب بامعان يرى أن المؤلف قد أخذ نفسه بالسجع في أول الكتاب، ثم أخذ يتحلل منه شيئاً فشيئاً، حتى أصبحنا لا نرى له أثراً في النصف الثاني من الكتاب، حيث أخذ المؤلف يقرر المسائل الطبية ويصف الأدوية وتركيبها كما يفعل أي طبيب في مؤلفه، دون التزام بالسجع.

وفي القسم الذي التزم فيه المؤلف بالسجع كان المؤلف يضطر إلى التقديم والتأخير، أو يضطر إلى استخدام كلمات قد يكون غيرها أبلغ منها في الدلالة على المراد، وهذا يوقع في شيء من الغموض، كل ذلك من أجل المحافظة على السجع؛ والعلم بما يحمله من المعاني الدقيقة يجب أن يصاغ بالأسلوب الفصيح المبين الذي لا لبس فيه.

### ٣ - لغة الكتاب :

كتب المؤلف كتابه « تشريح العين وأشكالها ومدادها أعلامها » بلغة عربية فصحة، لم يداخلها شيء من عامية أهل الشام ولا غيرهم، ولكنه استخدم مصطلحات علمية يونانية عند الكلام عن قروح القرنية، مع أن المترجمين العرب قد أوجدوا لها المقابل العربي. والعجيب أن هذه المصطلحات اليونانية في هذه القروح ظلت ترد مع ما يقابلها باللغة العربية، في كتب طب العيون التراثية، حتى القرن السابع الهجري. مع أن هذه الكتب لا تتفق في معاني ألفاظها اليونانية، فكل مؤلف يوردها على شكل يخالف به غيره.



ونحن لا نشك في أن مؤلفنا الطبيب كان عنده تذوق جمالي للغة العربية ، وعنده القدرة على صياغة المعاني والأفكار العلمية بجمال جميلة ، فاسمعه يقول في ص ٣ من المخطوط « وخلق له عينين ، وأذنين ومنخرين ، ولسانا وشفيتين ، ومرياً وحجابين ، وقلبا ورئتين ، ومعدة ومعاءين ، وكبدًا وكليتين ، وطحالًا وانشيين ، وجعل فيه مخاً وعظاماً ، وعصياً ولحمًا ، وعضلاً وشحمًا ، وعرقاً ودماً ، وجلداً وشعراً ، حكمة منه وبراً ، وجعل بعضها ماسكاً ، ومملوكاً ومالكاً ... الخ » .

أرأيت إلى هذه الموسيقى الخفيفة العذبة المنبعثة من هذا التركيب الفذ للجمال .  
ان هذا الأسلوب يجعل القارئ يذهل عن نفسه حتى يظن أنه يسبح في بحور الأدب ، ولكنه لا يلبث أن يرتد إلى نفسه فيجده بين طيات كتاب طب .

ومما يؤسف له أن المؤلف بدأ كتابه بهذا الأسلوب الأدبي الرائع ، ولكنه لم يلبث أن تركه في أواخره . وهذا يدل على أن جمال العبارة ليس طبعاً في المؤلف ، ولكنه كان يتكلفه ، يضاف إلى ذلك أن هذا الجمال كان يكدره أخطاء نحوية كثيرة تكاد لا تخلو منها صفحة من الكتاب .

#### ٤ - عنوان الكتاب :

قلنا ان الكتاب يحمل عنوان « تشريح العين وأشكالها ومداداة أعلاها » أو « تركيب العين وأشكالها ومداداة أعلاها » وهما في المعنى متحدان . ويعود المؤلف ليؤكد نفس العنوان في ص ٨ فيقول « ... بدأنا بأشرف أعضائه الظاهرة للعيان ، وأنفس حواسه في الكيان ، وهو البصر الجليل ، لنذكر علله ومداداته ، بتمام معرفة طبيعته ومزاجاته ، وشكله وهيئته ، ووضع بنيته ... » .

ولكن المطالع للكتاب يلاحظ أن المؤلف لم يتكلم على تشريح العين مع ما له من الأهمية الا أقل من صفحة واحدة ، ولم يتكلم قط كلاماً مستقلاً عن شكل العين ، وخصص كتابه لمداداة أمراض العين . وعلى هذا فان المؤلف لم يحقق مضمون العنوان ، وهذا قصور في التأليف لا يفتقر .

#### ٥ - تقويم الكتاب من الناحية التصنيفية :

ان التصنيف في طب العيون يتبع إحدى طريقتين سار عليهما الرعيل الأول من المصنفين العرب :

الطريقة الأولى وهي طريقة حنين بن اسحق في كتابه العشر مقالات في العين ، والرازي في كتابه الحاوي وفيها يتكلم المصنف أولاً عن تشريح العين ، ثم يشرح أسباب الأمراض الحادثة في العين ، وأعراض تلك الأمراض . وأخيراً يتكلم عن الأدوية المستعملة في مداواة أمراض العين .

والطريقة الثانية هي التي سار عليها ثابت بن قرة في كتابه البصر والبصيرة (١) ، وعلي بن عيسى في تذكرة الكحالين وغيرهم ، وهي ، أن يتكلم المؤلف عن تشريح العين ثم

يقسّم الأمراض بحسب أماكنها الى : أمراض الملتحمة ، أمراض القرنية ... الخ ، ثم يتناول هذه الأمراض مرضاً مرضاً ، ويبحث في كل مرض منها عن أسبابه ، وأعراضه ، وعلاجه .

لقد اختار مؤلف كتاب « تشريح العين وأشكالها ومداواة أعلالها » الطريقة الثانية ، وهي الطريقة التي استقر عليها التأليف في طب العيون .

وان المستقرىء للكتاب يرى أن المؤلف بدأ كتابه بالكلام على تركيب جسم الانسان واصفاً ومعدداً : العضلات ، والعظام ، والأعصاب ، والعروق ، والرأس ، والجذع ، والأطراف ، وقد حاول في هذا القسم أن يعطي احصائيات محددة . فذكر عدد العظام في جسم الانسان ، وعدد المفاصل ، وعدد العضلات ، وعدد الأعصاب الخارجة من الدماغ وغير ذلك ... الا أن من عيوب هذه الطريقة أنه سرعان ما ظهر اختلافها عما كشفه العلم الحديث ، واعتقد أن المؤلف لو لم يحصرها بالأعداد لكان أحسن .

ثم تكلم عن تشريح العين بصورة مختصرة علماً بأن هذا الموضوع ، كما يدل عنوان الكتاب ، يجب أن يستوفي حقه من الشرح ، ثم تكلم عن أمراضها جملة ، ثم أخذ يفصل ويشرح هذه الأمراض ، فتحدث عن أمراض الأجفان ، ثم عن أمراض المآق ، ثم عن أمراض الملتحمة ، ثم عن أمراض القرنية ، ثم عن أمراض العنابية ، ثم عن أمراض البيضية ، الا أنه لم يحافظ على هذا الترتيب في بعض الأحيان ، فكان يعود للكلام عن أمراض تكلم عنها سابقاً .

الا أن المؤلف في طريقته هذه التي وصفناها فاتته أن يقسّم كتابه الى أبواب وفصول ، أو الى مقالات ، مع أن هذا التقسيم كان معروفاً في طب العيون في عصر المؤلف ، بل أنه تعهد صياغة كتابه بشكل يكون فيه الكتاب وحدة لا ينفك جزء منها عن الآخر ، ويصعب الفصل بينها عند الانتقال من موضوع لآخر ، [فاسمعه يقول . وهو ينتقل من موضوع تركيب جسم الانسان الى موضوع العين « ولما كانت هذه الأعضاء الرئيسة ، والأصول النفيسة ، ما دامت على الترتيب والنظام ، تكون من ذلك صحة الأجسام ، فإذا زال أحدهما عن بنيته ، أو تغير عن هيئته ، أو استحال عن طبيعته ، أحدث مرضاً ، وبدل عَرَضاً ، جعلت الحكماء المتقدمون والفلاسفة المتقدمون لحفظ هذه الأعضاء على نظامها ، وشفائها من أسقامها ، علماً صناعياً ، وقياساً عقلياً ، يدعى « بالصناعة الطبية » ورتبوا لها قوانين برهانية ، ولما كانت جليلة القدر عظيمة الحظ ، لأن موضوعها هو الانسان ، الذي هو أشرف الحيوان ، بدأنا بأشرف أعضائه الظاهرة للعيان ، وأنفس حواسه في الكيان وهو البصر الجليل ... الخ ] .

ومما يؤخذ عليه أيضاً من الناحية التصنيفية اطالته في الكلام على تركيب جسم الانسان ، حيث استغرق ذلك منه ست صفحات ، ذكر فيها أشياء لا علاقة لها بالعين ، كعدد عظام الجمجمة ، وعدد عظام الجسم ، وعدد المفاصل فيه ، وعدد العضلات ونحو ذلك . ثم ذكر بعد ذلك أصنافاً من الأدوية لا علاقة لها بالعين كما أشرنا الى ذلك سابقاً .

## ٦ - تقويم المضمون العلمي للكتاب :

أ - ان الطريقة الاحصائية « العَدَّة » التي اتبعها المؤلف في الكلام على تركيب جسم الانسان جعلته يقع في أخطاء عديدة ، وربما لم تكن هذه الأخطاء أخطاء في عصره ، ولكن التطور العظيم الذي تطوره علم التشريح أظهر اليوم أخطاء واضحة فيما ذكره المؤلف .

ب - وأظهر الطب الحديث أخطاء وقع فيها المؤلف ، وربما لم تكن أخطاء في عصره ، من ذلك قوله ص ٣ « وجعل في الانسان ثمانية وثلاثين زوجاً من العصب ، وفرداً لا أخ له ولا نسب » فكان الخطأ في ناحيتين : الأولى في العدد الذي أشرنا اليه في الفقرة السابقة ، والثانية : ان الأعصاب كلها تكون أزواجاً - والله أعلم - وذكر في ص ٩ أن القرنية أربعة قشور - وهذا ما كان عليه أهل زمانه - ولكن العلماء اليوم يقولون انها مؤلفة من خمسة قشور .

وذكر في ص ٩ أيضاً أن الرطوبة الجلدية يكون نصفها مفرقاً في الرطوبة الزجاجية ، والصحيح أن السطح الأمامي لها يلامس القزحية ، والسطح الخلفي يكون متوضعا أمام الزجاجية .

وذكر في ص ٣٧ أن الرطوبة الجلدية تقع بين الرطوبتين البيضية والعنابية ، والصواب أنها تقع خلف العنابية ، وتكون البيضية بينها وبين العنابية .

وفي ص ١١ يعتبر الماء من أمراض البيضية ، وهو يخالف بذلك معاصريه الذين يعتبرونه من أمراض العنابية .

ج - وقد اختلف معاصروه فمن بعدهم في عدد بطون الدماغ ، فذهب حنين بن اسحق في العشر مقالات في العين ص ٨٦ وخليفة بن أبي المحاسن الحلبي في الكافي - مخطوط - الى أن عدد بطون الدماغ أربعة ، ووافقهما مؤلفنا ، علي بن ابراهيم بن بختيشوع ، وخالفهم الشيخ الرئيس ابن سينا في القانون ١/٤ وذهب الى أن بطون الدماغ ثلاثة .

د - وقد ذكر المؤلف في كتابه هذا بعض الأدوية التي قام هو بتركيبها ، وتجربتها على مرضاه فنجحت ، من ذلك كحل للماء النازل في العين ذكره في ص ٣٨ من المخطوط فقال : وأذكر ما قد جربت فيه من الأكحال ، فأبريته به على الكمال ، وذلك أنني اتخذت كحلاً من الحلتيت والعسل ، وماء الرازيانج وشحم الحنظل ، وما اتفق من مراير الطير الصاعدة ، والوحش العادية المتباعدة ، وداويت به رجلاً قد أمّلت عيناه في مدة معينة فكان به شفاء . . . الخ .

ومنه شياف ذكره ص ٧٩ كان قد ألفه لرجل شريف قد بقي في عينه أثر قرحة ، وغلظ في الأجفان ، وبدء سبّل ، ورطوبة تتحلب الى العين ، فبرئ منه في مدة أربعين يوماً .

ومنه كحل ذكره في ص ٨٦ يبرىء من البياض والجرب .

ومنه كحل ذكره ص ٨٠ يقوي البصر ويحفظ صحة العين ، ويمنع انصباب المواد الرديئة اليها ، ومنه حب ذكره في ص ٨١ ينقي الرأس ويقوي البصر .

ومنه معجون للأسنان ذكره في ص ٥ قال فيه : عملته وجربته عند سقوط أسناني لما سقطت واهترأت لثتي وتقطع كثير من لحمها ، فأنبت لحمها ، ومسك باقي الأسنان والأضراس وقواها ، ثم ذكر تركيبه .

وذكر غير ذلك .

هـ - وأكثر الأدوية التي ذكرها في كتابه هذا - أن لم نقل كلها - قد جرّبها بنفسه ، وتبين له نجاحها ، وهذا أمر ليس بالهين .

و - أن العلاجات التي ذكرها المؤلف لأمراض العين لم تكن قاصرة على العقاقير الطبية ، بل كانت تتناول أيضاً العمليات الجراحية ، التي كان يصفها لنا المؤلف في بعض الأحيان وصفاً دقيقاً ، وأكثر هذه العمليات قد مارسها المؤلف بنفسه وتبين له نجاحها كما يقول .

ز - يمتاز الكتاب بالاختصار الشديد ، فهو في أكثر الأحيان لا يذكر أسباب الأمراض ، وفي كثير من الأحيان لا يذكر أعراضها ، وفي بعض الأحيان لا يذكر للمرض الواحد إلا دواءً أو دواءين ، ولعل المؤلف يفعل ذلك اعتماداً على أنه سيذكر في آخر الكتاب مجموعة كبيرة من الأدوية المركبة التي يفيد الواحد منها العديد من أمراض العين .

ح - هناك أدوية مركبة تقليدية متعارفة بين أطباء العيون آنذاك ، منها : مثلاً : شياف الأبار ، وذرور الملكايا ، وروشنايا العزيز وغيرها ، وهذه الأدوية كان المؤلف يذكرها لنا بعد ادخال بعض التعديل فيها بإضافة مادة دوائية أو أكثر عليها ، أو باتباع مادة أو أكثر منها ؛ وهذا دليل على تمكن المؤلف من مهنته ، ومعرفة الدقيقة بخصائص العقاقير الطبية مفردة ومجموعة مع غيرها .

ط - لقد وقع المؤلف في خطأ فاحش عندما نسب في ص ٨٧ من المخطوط الى النبي (ﷺ) كحلاً كان قد نسخ من أحمد بن يوسف الصوفي الحاج ، أخبره أنه أخذه من رجل عابد بمكة ، ولدى التحقيق وجدنا أن الكحل لا أثر لنسبته الى الرسول الكريم .

ي - والأمر الرائع حقاً في هذا الكتاب ص ٤٠ أن المؤلف كان لا يبيح لغير الماهر في صناعة الطب بعامة وفي الأعمال الجراحية بخاصة أن يقدم على إجراء العمليات الجراحية في عيون الناس ، ويفرض على المتدرب أن يتدرب على جراحة العين بعيون الحيوان - كالشياه ونحوها - حتى إذا ما آنس من نفسه المهارة وعلم فيها الجدارة جاز له أن يجري العمل الجراحي في عين الانسان .

## وبعد :

فان علي بن ابراهيم بن بختيشوع وان كان قد صرح في كتابه هذا « تشريح العين وأشكالها ومداواة أعلالها » أن الطب قد اكتمل على يد جالينوس ، وأنه لن يأتي في كتابه هذا بشيء من الإضافات غير تنميق العبارة ، وجمال الصياغة .

الا أننا نرى أن مؤلفنا قد أضاف الى طب العيون في كتابه هذا ممارسات جديدة بأدوية جديدة ، وان لم يكن قد أضاف اليه جديداً من الناحية الأكاديمية .

## □ الحواشي :

- ١ - الأعلام ١٢/٢ وتاريخ الطبري ٥٦/١١ وطبقات الأطباء ١٣٨/١ .
- ٢ - طبقات الأطباء ٢٠٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٥٧/٢ .
- ٣ - الأعلام ١٠١/٢ وطبقات الأطباء ١٤٤/١ .
- ٤ - الصهرنج بثر في الأرض تجمع فيه مياه الأمطار ، ثم يستقى منه .
- ٥ - انظر : معجم البلدان في كفر طاب .
- ٦ - الأعلام ١٦٣/٣ وانباء الرواة ٩٧/٢ وبغية الوعاة ٧٥٩ ومعجم الأدباء ٢٤٥/٤ وبغية الوعاة ١٢٤ ومعجم الأدباء ٢٧٢/١٩ .
- ٧ - الأعلام ٢٢/٨ .
- ٨ - اشارة التعمين في تراجم النحاة واللغويين ص ٥٠ .
- ٩ - بغية الوعاة ١٩٧/٢ وما بعدها وهدية العارفين ٧٠٨ - ٧٠٩ .
- ١٠ - مقدمة كتاب الكافي في الكحل لخلفه بن أبي المعاسن الحلبي - بتحقيقنا وطبع أسيسكو .
- ١١ - تم تحقيقه من قبلنا ، وسيطبع من قبل مدينة الملك عبدالعزيز التكنولوجية في الرياض .